

تحديات الخصوصية عبر الفيسبوك

المستخدمون، بين حماية الحياة الخاصة وحرية عرض الذات

أ.عبد القادر بودريالة

جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

الملخص:

أبرز نجاح الفيسبوك ظاهرة ممارسات التنشئة الاجتماعية الرقمية، حيث أصبح من الشائع اليوم وعلى نحو متزايد التقديم الذاتي (العمدي) للمعلومات الشخصية ومراقبة حياة الآخرين عبر الشبكات الاجتماعية، إن انتشار هذا العرض الذاتي ومراقبة الأشخاص يثير مسألة الهوية والمخاطر الاجتماعية الناجمة عن هذا الإفراط في عرض الذات عبر الواب و إسهام المستخدمين دون وعي منهم في التجارة التي تشكلت في الفضاء الرقمي ألا وهي تجارة البيانات الشخصية، و عليه اخترنا الوقوف من خلال هذا المقال عند آثار انفتاح المجالين الخاص والعام، ومخاطر الإفراط في عرض الذات، محاولة منا للكشف عن تحديات الخصوصية عبر الفيسبوك.

الكلمات المفتاحية: الفيسبوك، عرض الذات، الخصوصية.

Résumé:

Le phénomène de Facebook a mis en évidence les pratiques de la socialisation numérique, l'auto-introduction (intentionnel) des informations personnelles, le contrôle de la vie des autres sur les réseaux sociaux est devenu de plus en plus commun aujourd'hui, la propagation de l'exposition de soi soulève la question de l'identité et les risques sociaux posés par cette exposition excessive à travers les réseaux sociaux, ainsi que la contribution des utilisateurs dans le commerce des données personnelles à travers l'espace numérique, nous avons choisi de présenter cet article pour démontré les effets de l'ouverture des sphères privées et publiques dans l'espace numérique et les risques de l'exposition de soi excessif, comme tentative de détection des défis de la vie privée sur Facebook.

Mots-Clés: Facebook, Exposition de soi, Vie privée.

تواصل الأنشطة الاجتماعية والحياة التواصلية منذ ظهور الانترنت الانتقال نحو الشبكات الرقمية حيث استطاعت أن تلبي حاجيات الأفراد: التعارف، تقديم الأفكار، التعبير عن النفس، اللعب، مشاركة الفيديوهات، نشر الصور، التعليق على الأحداث الجارية... الخ، فأصبحت تمثل (المساحات الرقمية العامة، المنصات، المدونات والشبكات الاجتماعية...) فضاءات تواصلية مميزة من أجل الشعور بالذات والتعبير عنها.

ومنه لا يتوانى الأفراد الكشف عن معلوماتهم الشخصية وعرض ذواتهم بشكل متزايد لجمهور يتسم عموما بالضبابية، والمعاملة بالمثل مع أطراف التبادل الرقمي (متابعة الغير والتعرض للمتابعة، عرض الذات ومراقبة الغير)، فتبلورت التنشئة الاجتماعية الرقمية حول هذان الاتجاهان القويان، غير أن هذا التهورين لممارسات العرض الذاتي والرقابة الشخصية يدفعنا إلى طرح التساؤل التالي: ما هي أخطار العرض الرقمي للذات عبر الفيسبوك على الخصوصية؟

ينصب اهتمامنا من خلال هذا التساؤل في فهم تغير مداخل الخصوصية في عصر الرقمنة، من خلال تحديد ممارسات وتمثلات مستخدمي الفيسبوك، هذا الموقع الذي يشهد نموا متواصلًا، حتى أصبح يمثل في وقت قصير رمزا لانتشار ممارسات التنشئة الاجتماعية عبر الواب، كما أن تحليل نظام الشفافية الذي (يؤكدده) الفيسبوك، يدفعنا إلى البحث

في التحديات التي تواجه الخصوصية في العصر الرقمي من ناحية ومدى حاجتنا الدائمة لحماية بياناتنا الشخصية وخصوصيتنا من ناحية أخرى.

1. عرض الخصوصية وتراجع التواضع: لسنا بحاجة إلى إبراز الاهتمام الذي تمثله خصوصية الشخصيات العامة في المجتمعات المعاصرة، فإشباع فضول المتابعين لحياة الشخصيات العامة أصبح المحرك الأساسي الذي يغذي الصحف التي تبحث عن الإثارة والذي أدى بدوره إلى توسيع مجال الأشهار أو بما معناه "مردودية ما أصبح عاما"، فمنذ أكثر من قرن، ومع ظهور الصورة الفوتوغرافية في الصحافة وتطورها الصناعي، امتد مبدأ "الأشهار" في المجتمعات الديمقراطية من سلوك الشؤون العامة إلى سلوك الشؤون الخاصة للشخصيات العامة، ليصل اليوم إلى الحياة الخاصة للناس العاديين، كما سعت الصحافة منذ بداية القرن العشرين لإثارة عاطفة الجمهور تجاه المواضيع الإنسانية والمحلية، معلنة بذلك عن ظهور القصاص الصحفية التي تركز على الجوانب الانسانية.

من جهته بدأ التلفزيون منذ ظهور برامج "تلفزيون الواقع" (MEHL. Dominique, 2008, pp, 265-) باستكشاف لجوانب النفسية للناس العاديين مع إخفاء البعد الخيالي، الفني والدرامي للإنتاج التلفزيوني، مؤكدا إظهار الحياة الحقيقية للناس والحديث عن معاناتهم والولوج إلى خصوصياتهم، من خلال إنتاج هذه الطريقة في التقرب من الناس العاديين، عن طريق عرض الحميمية والحياة اليومية على الشاشة مخترقا بذلك المجال الخاص، وهو ما أدى بدوره إلى عدم وضوح الحدود الفاصلة بين الحياة العامة والخاصة.

أصبح عرض الذات في الفضاء العام ومراقبة خصوصية الجمهور من خلال "نافذة" الشاشات المنتشرة في كل مكان من الأمور الشائعة بتشجيع من وسائل الإعلام والتكنولوجيات الحديثة (TISSERON. Serge, 2007, pp, 74-)، فالناس لا تضع أحكاما قوية لاستراق النظر والتطفل، والدليل على ذلك هو زيادة سهولة عرض أجزاء من حياة أي فرد كان، وهي التي كانت تشكل جوانب خفية بالأساس حيث تبقى في الظل أو يأتمن عليها عدد قليل من "الأفراد الحميمين"، كالعواطف، الشكوك، المذات، العادات وجوانب من الحياة اليومية.

يشير GRANJON. Fabien هنا إلى أن عملية استيعاب قواعد التواضع قد ضعفت تحت تأثير صعود ثقافة النرجسية وتضخم الذات والتي ترتبط مع عدم الاهتمام بالشؤون العامة (GRANJON. Fabien, 2009, pp, 95-112)، ومن ثم طرأت تغيرات في العلاقة بين الأفراد فيما يتعلق بالخصوصية، فما كان ضروريا أن يبقى مخفيا سابقا يمكن الآن وفي ظل ظروف معينة أن يكشف للجمهور من خلال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات "الإنترنت" بالخصوص، وذلك بفضل كاميرات الويب التي تعرض على الإنترنت مشاهد الحياة اليومية لأشخاص مجهولين (CAUQUELIN. Anne, 2003, p, 30) كانت إلى زمن قريب تعتبر غير قابلة للوصول لأنظار الآخرين.

2. الخصوصية، حرية يصعب حمايتها: اختلف مفهوم الخصوصية حسب العصور، المؤسسات والأفراد، حيث أن الخصوصية ليست حقيقة طبيعية ثابتة وأن إعادة تعريف حدودها يتم باستمرار، لقد تمكن أرسطو من التمييز الكلاسيكي بين المجال العام (المدينة) وبين المجال الخاص (المنزل)، مع خلفية فكرة أن "المجال العام" سيكون "قلعة الحرية" في حين أن "المجال الخاص" سيمثل "مملكة الضرورة" (GERSTLE. Jacques, 1987, pp, 659-674)، غير أنه في العصر الحديث يوفر "المجال الخاص" وظائف جديدة ترتبط بقيمتها، ففي المجال الخاص وتحديدًا داخل الأسرة، وبمعزل عن الضغط الاجتماعي، يتم بناء الحريات الجديدة ويستطيع الفرد بناء شخصيته، حيث أن التفكك التدريجي بين المجال الخاص والمجال العام في القرن التاسع عشر، أدى إلى الاعتراف بأن الأسرة هي الملجأ الواقعي من المجتمع كما تشكل حاجزا بين الذات والعالم الخارجي، وبهذا يشكل جدار الخصوصية حدودا صارمة مع الفضاءات الأخرى مما يولد بعض القيود، لكنها توفر حرية جديدة.

أصبح الشعور بالحميمية خلال القرن العشرين متقدرا وعابرا للحدود الطبقية، أين أضحي احترام الخصوصية حقا شرعيا وشرطا أساسيا لممارسة الحريات الأساسية، من خلال تبني مجموعة من القواعد والقوانين الوضعية في المجتمعات الديمقراطية لضمان الحق في الملكية الخاصة وحرمة المسكن، ومنه يعتبر الحق في احترام الحياة الخاصة أساسا للتنظيم الاجتماعي وضمانا لحرية الذات.

حتى إذا كان لا يزال يشكل قضية معقدة ذات مداخل متعددة، وحتى لو كان عدم اليقين القانوني والأخلاقي لا يزال يحيط تعريفه، فإن الحق في الخصوصية يبرز هشاشته كلما ظهرت تحديات تهدده وتضعه للنقاش، كما أن ما شهده العالم مع مطلع الألفية الثالثة من ابتكارات تكنولوجية لتسجيل الواقع والتطور في المعالجة الآلية للبيانات زاد من حدة هذه التحديات.

كما أشرنا إلى ذلك سابقا عن تلفزيون الواقع، فإن تصميم الخصوصية يميل إلى التحول، فاليوم هناك توجه نحو الانفتاح بين المجالين الخاص والعام وتراجع الالتزام بالخصوصية (ROUVROY. Antoinette, 2008, pp, 249-278)، التي طالما اعتبرت الحرية التي تحمي الأفراد، غير أنه يمكن النظر إليها اليوم باعتبارها عائقا أمام الذات التي تطمح لنشر نفسها علنا.

أسست ممارسات التنشئة الاجتماعية الجديدة لحرية التعبير عن الذات من خلال عرضها ومراقبة ذوات الآخرين على حساب الحق في الخصوصية وواجب الحذر عبر شبكة الإنترنت، فأصبحنا نشهد وبشكل متزايد الرغبة في الحديث عن الذات والمطالبة بالحق في الظهور وجعل الاطلاع على ذاتنا في متناول الآخرين، أو أبعد من ذلك الدعوة إلى احترام الحق في المعلومات، الذي يسمح وبكل شرعية مراقبة، توفير وتكوين المعرفة عن الآخرين، يفسر هذا التوجه ظهور مواقع النشر الذاتي (المدونات ومواقع الشبكات الاجتماعية...) ويؤكد VITALIS.André في هذا الشأن أن "كثير من الناس يتطلعون لتفجير "فقاعة الخصوصية" التي يشعرون الآن بأنها ضيقة جدا"، (VITALIS.André, 2002, pp, 54) أو بتعبير آخر حسب VITALIS.André دائما "تظهر الخصوصية حسب التصور التقليدي باعتبارها سجنا أكثر منها حرية فبعد حث الفرد على التراجع إلى خصوصيته، يشجع اليوم على كشف خصوصيته مما أدى إلى تفرغ هذا المفهوم من محتواه".

ساهم مستخدمو مواقع الشبكات الاجتماعية من جهتهم في استكشاف طرق مسلية وممتعة للعرض على الإنترنت (GRANJON. Fabien, 2009) والذي يبدو أنه أصبح تجسيدا للتححر بالنسبة لهم، فحسب KOSKELA.Hille فإن "عرض الجمهور لحياته الخاصة هو تمكين للاستثارة وشكل من أشكال (مدونات الحياة)"، فحقيقة "كشف الأشخاص عن حياتهم على شبكة الإنترنت" - هو تعبير مبالغ فيه- (KOSKELA. Hille, 2004, p,133)، بهذا تصبح الشبكات الاجتماعية ضرورية لتعزيز أحكام العرض الذاتي على الإنترنت، كما تساهم أيضا في تهوين ممارسات الرقابة البيئية.

3. حياة تحت المراقبة: أصبحت أجهزة تحديد الموقع الجغرافي والمراقبة بالفيديو من الأمور المألوفة، كما أن أجهزة التواصل الرقمي تغزو يومياتنا بشكل مستمر، مما ساهم في تفجير ممارساتنا الاجتماعية الرقمية، فاليوم نحن معتادون على نحو متزايد لرؤية أعمالنا تسجل كما اعتدنا على العيش تحت المراقبة باستمرار، فيمكن للمرء ملاحظة أن الجهود تتضافر جميعها لجعل التردد والتتبع مقبول وحتى مرغوب فيه، لمقتضيات أمنية (مكافحة الأزمات الغير أخلاقية ومكافحة الإرهاب...) عقلنة إدارة الأفراد في جميع المجالات (تحسين الإدارة و شخصنة الخدمات...)، وخاصة البحث على العيش المشترك، الراحة الشخصية، البقاء على اتصال، تبادل الخبرات و تحديد الموقع.

تأثر الاحتياجات السياسية، الاقتصادية والاجتماعية من جهتها على زيادة تقبل الأشكال المتعددة من الرقابة، ففكرة التتبع والرصد أصبحت مألوفة شيئا فشيئا إذ تعزز أشكال الحرية الجماعية والاستقلالية الفردية، فلم تعد ينظر إليها على أنها مصدر إزعاج، خرق للخصوصية أو ممارسات تعسفية، بل يمكن اعتبارها اليوم مظهرا إيجابيا من

مظاهر الديمقراطية والمساواة، ففي حين يتواصل التخوف من أشكال الرصد "المؤسساتي"، تميل الممارسات الاجتماعية الرقمية الجديدة إلى التهوين من شأن المراقبة "الشخصية" من خلال مفاهيم مثل "الرقابة المتساوية"، "تحت المراقبة"، "المراقبة الجانبية" أو "المراقبة التشاركية" وتميل خطابات علمية أخرى حتى لإضفاء الشرعية على أشكال جديدة من المراقبة المشتركة أو البيئية بمساعدة الكمبيوتر.

في سياق آخر، أشارت العديد من الدراسات، استطلاعات الرأي والمقالات الصحفية بناء على مناقشات المستخدمين عبر المدونات والشبكات الاجتماعية، إلى أن واقع أن تكون الخصوصية محل الرصد المستمر لا يؤدي إلى المقاومة وهو ما يفسر انتشار الممارسات الطوعية لعرض الذات على الإنترنت رغم الوعي بالمخاطر.

يصب النقاش العام حول ضرورة حماية الخصوصية في عصر الشبكات الرقمية في صالح هذه المسألة، إذ غالباً ما يركز اهتمام الرأي العام على حماية القصر والتوعية من المخاطر "الكبرى" في جرائم الحاسوب (الاعتداء الجنسي على الأطفال، الإرهاب، سرقة الهوية والجرائم المالية...)، غير أن هذه المخاوف تعكس قبل كل شيء عدم اليقين والتردد الذي يغمر المستخدمين النشطين في الفضاء الرقمي أين تسود قاعدة التنبع وغياب الحدود الفاصلة بين المجالين الخاص والعام، فعلى الرغم من بعض التراخي في الممارسة العملية، لم تختفي مسألة حماية الحياة الخاصة مع الويب 2.0 سواء تعلق الأمر بالنوايا السيئة لصديق سابق، قرصنة الهوية أو الرسائل الاشهارية الغير المرغوب فيها... مثلاً، وعليه تضاعفت مبررات الحماية من الاختراق الخارجي للبيانات الشخصية بعد رقمنة التبادلات.

إن تفاقم آثار المراقبة (المؤسساتية والبيئية) جراء ارتفاع الأداء التكنولوجي فجر مخاطر واحتمالات التعدي، وبذلك يتضح أن الجميع يبحثون عن طرق لحماية الهوية الرقمية الخاصة بهم، وتطوير إمكانية التخفي في الفضاءات الرقمية التي يترددون عليها إذا لزم الأمر، من خلال استخدام أسماء مستعارة أو الهويات السياقية، مثل إعطاء بيانات غير حقيقية عند التسجيل على الموقع، و هي من الممارسات الشائعة على الإنترنت، حيث تشكل المستوى الأول من الحماية بالنسبة للمستخدمين، غير أنها لا توفر أدلة على أن الحاجة إلى السرية لا يزال موجوداً في العصر الرقمي، و هو ما يعبر عنه TISSERON. serge قائلا "ما زلنا بحاجة للحفاظ على الأسرار، و محو بعض آثارنا، و تجهيز " شاطئ حميم" (TISSERON. Serge, 2007, p, 74-76).

لتحقيق ذلك، هناك حاجة دائمة للإبداع في تقديم الذات وبعض الذكاء في التواصل الرقمي، لذا يجب علينا أن نفكر في مسألة الخصوصية بالتزامن مع "التعمد" في عرض ذواتنا تارة والاختباء وراء جدران الحياة الخاصة تارة أخرى، كما يعبر عن ذلك CARDON. Dominique بقوله "على شبكة الإنترنت نلعب على إخفاء وكشف عن أجزاء من أنفسنا بالتناوب ونرسم هوياتنا بوضوح وغموض" (CARDON. Dominique, 2008, p, 96).

4. محو الأمية الرقمية لإدارة السمعة الرقمية: يثير تطور الممارسات الاجتماعية والأخلاقية الرقمية قلق المدافعين عن حماية الخصوصية الذين يناضلون من أجل تعميم التعليم الرقمي السليم كرد فعل تجاه تفكيك جدار الخصوصية، انطلاقاً من فرضية أنه في مجتمعاتنا الحديثة يفرض علينا أن نكون مرئيين على شبكة الإنترنت كما لا يمكننا ألا نترك آثارنا عبر الشبكة، غير أن هذا الطرح لا يعتبر تحريضا على هجرة العالم الرقمي، وإنما تعزيزاً للحياة الخاصة كأحد جوانب مكافحة الأمية الرقمية.

في هذا السياق، وللعيش كمواطنين أحرار ومستهلكين مطلعين، علينا الاستفادة من معلومات كافية بشأن المخاطر والتقنيات الملائمة للحماية، بذلك يظهر شرط التعلم والاطلاع على قضايا الثقافة الرقمية (محو الأمية الرقمية) كأساس للتحكم الذاتي للجماعات الرقمية، حيث يبدو مستخدمي الشبكات الاجتماعية غارقين في الثقافة الرقمية يكافحون من أجل تحديد المخاطر وليس لهم سوى وعي غامض عن آثار تضخم الهوية ونشر البيانات الشخصية.

تشكل هذه القضايا اهتماما ثانويا بالنسبة للمستخدمين، فهم يبدون أكثر عرضة للمنطق النفعي لعرض الذات عبر الانترنت، فيعملون على تطوير بعض القواعد الجديدة للعبة الاجتماعية الرقمية، مهتمين أكثر بأشكال عرض الذات، ويبدون على دراية تامة أن هذا العرض عبر مواقع الشبكات الاجتماعية يشكل قوة حقيقية تؤسس لرأس المال الاجتماعي عبر الفضاء الرقمي، ولزيادة هذه القوة يجب على كل فرد أن يصبح متخصصا في إدارة هويته الرقمية.

قصد رفع مستوى الأمن والحماية الشاملة للموقع يقترح الفيسبوك لمستخدميه تغيير وبناء معايير سرية المعلومات بشكل مطرد، غير أنه من السذاجة الاعتقاد بأن هذه الاستراتيجية تسعى فقط لضمان أمن المستخدمين واستقلاليتهم، إذ يسعى الفيسبوك في حقيقة الأمر إلى جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن المستخدمين عبر استراتيجية تعتمد على كسب ثقة الأعضاء والمحافظة عليها من جهة، وضمان الحماية القانونية للموقع ضد المتذمرين المحتملين من جهة أخرى.

يمثل الجزء المخصص لتحديد مستوى الخصوصية في موقع فيسبوك تحديا بالنسبة للمستخدمين، مما يثنيهم عن الاهتمام به أصلا، فبواسطة هذه التدابير الغامضة، يسعى الفيسبوك جاهدا للحفاظ على وهم السيطرة الفعلية للمستخدمين على خصوصياتهم.

5. عرض الذات والفجوة الرقمية الجديدة: يبدو ضروريا بما كان في مسعى التغلب على تحديات الخصوصية التأكيد على محور الأمية الرقمية لتمكين المستخدمين من التحكم الذاتي في إدارة هوياتهم الرقمية، إذ حتى وإن أصبح الالتزام بالخصوصية متجاوزا للكثيرين، فإن الاحتياجات إلى ذلك حقيقية كما تناولنا ذلك سابقا، وبخاصة في ظل "رقمنة الحياة" و "التضخم الهوياتي" اللذان يشكلان لب الصناعة الجديدة والأسواق التي تتشكل في الفضاء السيبراني، وأساسها مصالح الشركات التجارية الكبرى الواعية بتحسين سمعتها الرقمية.

إن السمعة الرقمية شأن عام وتعني الجميع، غير أن البارز أن نخبة فقط تبدو قادرة على تضيق حجم المخاطر الرقمية والاستفادة من إدارة أفضل لصورته وسمعتها عبر الانترنت، فتبرز هنا حاجتنا الماسة إلى التفكير في طرق لتجسيد التربية والثقافة الرقمية في أوساط المستخدمين، لتجنب عدم المساواة في المجتمع خصوصا في بلداننا العربية، فكيف يمكن للمرء ألا يخشى أن تؤدي الأمية الرقمية إلى تعزيز عدم المساواة التي تؤدي بدورها إلى خلق عالم رقمي طبقي؟

لو اعتبرنا أن مهارات إدارة الخصوصية مصممة اجتماعيا وموزعة بشكل غير متساوي، تبرز الحاجة إذن لبذل جهد كبير للحد من الاختلالات الاجتماعية ومكافحة الآثار، فتطوير سوق "السمعة الرقمية" المبني على مبدأ من يدفع أكثر عوض الحرص على تنقيف المجتمع الرقمي حول الخصوصية، أدى إلى انقسام الفضاء الرقمي الجديد وظهور فئتين من الأفراد، أولئك الذين يعرفون كيف يظهرون مع حماية أنفسهم وجعل عرض ذواتهم عبر الانترنت قوة لصالحهم من جهة، والسذج الرقميين الذين يعانون من آثار هذا التعرض أكثر من استفادتهم من جهة أخرى.

في هذا الشأن، أكدت دراسة حديثة لجامعة واشنطن أن الأطفال يشعرون بقلق متزايد بخصوص الصور المنشورة عنهم من قبل أوليائهم، فهم يشعرون بقضاء وقت جيد على الشبكات الاجتماعية، غير أن هذا لا يعني أن لأوليائهم الحق في "نشر" صور لهم، سواء عبر الفيسبوك أو مواقع أخرى، وتشكل هذه المسألة بالفعل قضية قانونية خطيرة في بعض البلدان، مثل فرنسا، بلجيكا وألمانيا التي تحذر فيها السلطات الأولياء من إمكانية أن يتابعهم أطفالهم قضائيا في مرحلة البلوغ لانتهاكهم خصوصيتهم وتعريض سلامتهم للخطر.

ينم نشر صور لأطفالنا عبر الفيسبوك عن نية حسنة وشعور جيد، ومع ذلك، فإننا في بعض الأحيان نغفل عن المخاطر المرتبطة بنشر هذه الصور والمتعلقة باحتمال تعرضهم للتنقيب والمراقبة وحتى الاعتداءات الجنسية من طرف

بعض الأشخاص المضطربين نفسياً، وما شهدته الجزائر من حالات اختطاف، اغتصاب وقتل للأطفال خلال السنوات الأخيرة يدفعنا إلى التأكيد على ضرورة توعية الآباء من مثل هذه الأخطار لتفادي الوقوع فيها، و من ناحية أخرى فنحن لم نستشر أطفالنا عرض هذه الصور لأنهم قصر و هم كذلك ليسوا مطالبين بضرورة العثور على صور لهم في وقت لاحق على شبكة الإنترنت، فنحن ننسى أن هذه الصور باعتبارها معلومات رقمية تتسم بطول عمرها و لن تختفي أبداً و هو ما دفع بعض البلدان الأوروبية إلى تحذير المستخدمين، بما في ذلك بلجيكا، فرنسا وألمانيا من الأخطار المتعلقة بنشر صور للأطفال.

بالإضافة إلى ما تقدم، يمكن اتخاذ عدد من التدابير لمنع الأخطار عن طريق تعديل إعدادات الخصوصية لتحديد الأفراد الذين بإمكانهم الاطلاع على صورنا على سبيل المثال، كما يمكننا القول إن استخدام الأفراد للشبكات الاجتماعية يتم على النحو الذي يروونه مناسباً، فمن الصعب تحديد تصرفاتهم أو الرجوع دائماً إلى المستوى القانوني للقضايا التي تثيرها الشبكات الاجتماعية.

تواجه مسألة التعمد واقع التنشئة الاجتماعية الرقمية، فسوف يتقاجأ مستخدمي الإنترنت لمعرفة أن المعلومات التي يريدون حصرها في دائرة محددة من الأصدقاء قد توجد منتشرة رغم إرادتهم على الشبكة، مما يؤدي إلى أكثر من انزعاج، بل يمكن أن يسبب مشاكل حقيقية لهوية المستخدم عبر موقع الفيسبوك مثلاً، وعلى الرغم من الاحتياطات التي يبدو أن العديد يتخذونها خلال ممارساتهم ومحادثهم الرقمية إلا أن الأخطار تبقى قائمة، يقر المستخدمون أن ممارستهم على الفيسبوك تبدو سريعة على الأقل أكثر مما كانت عليه على شبكة الإنترنت قبل ظهور الفيسبوك أو حتى مقارنة بالمواقع الأخرى، إن الفيسبوك يشجع على الاسترسال والمشاركة ويحفز تقديم المزيد والمزيد من المعلومات التي يمكن أن تشكل خطراً عندما تقع بين الأيدي الخطأ، تحفز الشبكات الاجتماعية عبر الإنترنت على "إظهار" الذات ونشر البيانات الشخصية، ليبقى التحدي هنا في تعريف حدود الخصوصية، وتقديم حدود حرية واستقلالية الأفراد في المراقبة البيئية داخل المجتمع.

6. هل يمكن ألا نتواجد عبر الفيسبوك؟

يتفق المستخدمون عبر العديد من الدراسات أن الفيسبوك جزء مهم في حياتهم اليومية لدرجة أنه سيكون من الصعب الاستغناء عنه، حيث يعتمد الفيسبوك على وظيفة الترابط والانتماء إلى الشبكة (التأكد من الاحتفاظ بالاتصال مع شبكته وأن التواصل على ما يرام)، ففي معظم الحالات، يساعد الفيسبوك على إبقاء "نافذة مفتوحة" على الآخرين مع إمكانية وصول الآخرين إلينا.

يمثل الفيسبوك إذن أداة مناسبة لتقديم سبل التواصل وعرض الذات ضمن هذا العالم الذي يشجع على الزيادة في المجتمعات الشبكية وتطوير الذات الرقمية، يظهر الفيسبوك بذلك كفرصة لعيش حياة اجتماعية علائقية أفضل، حتى أضحت اليوم ممارسات الفيسبوك واحدة من الطقوس الاجتماعية القصرية إذ تظهر بعض خطابات المستخدمين شكلاً من أشكال المماثلة العلائقية والتميز السلبي للذين لا يستخدمون الفيسبوك.

إن نجاح الشبكات الاجتماعية الرقمية والفيسبوك على وجه الخصوص يجعلنا ندرك اتجاه عرض الذات بشكل أفضل، وهو ما يؤكد GRANJON بقوله "إن مواقع الشبكات الاجتماعية هي تحفيز واضح لقبولنا الكشف عن معلوماتنا الشخصية"، إذ يعمد الأفراد إلى كشف وتقديم المعلومات الشخصية عمداً ودون أن يجبرهم أحد على ذلك، حيث يستند العقد المبرم بين مؤسسة فيسبوك ومستخدميها في الواقع على المشاركة الحرة والنشطة من أعضائها لتميطهم دون الحاجة إلى تحفيزهم إذ أن المعيار الوحيد بالنسبة لهم هو أن يكونوا قادرين على الاستفادة من خدمات المنصة.

أدى ظهور الشبكات الاجتماعية التي تعمل على نموذج "الظهور المفرط" إلى الاخلال بمنطق جمع البيانات الشخصية، فبالنسبة لمستخدمي الفيسبوك يظهر التسجيل الطوعي على أنه "شيء طبيعي تماماً" وليس فرصة لتقديم

وتجميع كتلة من البيانات الشخصية عن أنفسنا، وهو ما يحفز المتخصصين في مجال التسويق الرقمي لاستخدام هذا "الشكل الإبداعي" للحصول على مشاركة إرادية يؤدي إلى جمع البيانات، وقد أدت هاته الممارسات الواسعة النطاق عبر الشبكات الاجتماعية على الانترنت إلى كسر الحواجز النفسية التي تكبح الكشف عن المعلومات الشخصية، ففي الواقع ترسم ممارسات الشبكات الاجتماعية الخطوط العريضة لـ "القبول الطوعي" لعرض الذات.

7. مشاركة المستخدم وسياسة التخلي عن الخصوصية للفيسبوك:

إن التمثيل والتميط أمر مشروع على شبكة الإنترنت بشكل عام والفيسبوك على وجه الخصوص، لأنه يتم بناء على الموافقة والمشاركة النشطة للمستخدم كما تشير إلى ذلك HENAFF.Nolween، إذ يتم بطريقة إرادية، فالمستخدم حر في تقرير ما يريد أن يكشفه عن خصوصياته من خلال الاختيارات المتاحة له عبر إعدادات الخصوصية، دون ادعاء أن أي موافقة من طرفه تتحمل أخطارا محتملة، ومع ذلك يجب أن نتوقف عند الظروف التي يتم فيها هذا الاختيار والنتائج المترتبة عنه.

رغم أن الفرد يملك حرية الانتساب إلى الفيسبوك، إلا أن هذا لا يعني أنه يعي نطاق الكشف عن الذات، وعلاوة على ذلك فحرية أن تكون أو لا تكون في الفيسبوك تبدو مقيدة إذ تخضع لضغوط الأصدقاء والخوف من التهميش اللذان يلعبان دورا أساسيا في قرار الاندماج في الشبكة فنحن مجبرون أن نكون ضمنها حتى لا نكون معزولين اجتماعيا.

فبعد أن يشترك الفرد في الفيسبوك والذي يكون في أغلب الأحيان بتحفيز من محيطه الاجتماعي، يصبح مستخدما نشطا يلعب دوره كنموذج للسلوك الرقمي ومجنبا لمستخدمين محتملين آخرين في محيطه الاجتماعي، فمؤسسة MarkZUCKERBERG التي تعمل على تشجيع التوظيف الشبكي للمستخدمين، تملك آليات الاستفادة من هذا المجتمع الرقمي الحيوي من خلال البرمجة الذكية، كما يشجع الفيسبوك باستمرار أعضائه على قبول ضمن قائمة الأصدقاء المستخدمين للذين يتشاركون معهم نفس الأصدقاء، وتوفير محتوى دائم للموقع وتقديم أكثر من أي وقت مضى من ذواتهم (من خلال تطوير التطبيقات الاجتماعية الأصلية)، ولنا أن نتذكر هنا أن المضامين المقدمة من قبل المستخدم هو لب تجارة الفيسبوك، أما بالنسبة للبيانات الشخصية فتشكل ثروته، ومن ثم فإنه من مصلحة الفيسبوك أن تكون دائما كثيرين ونشطين عبر الموقع.

يرتكز النموذج الاقتصادي للفيسبوك مثل معظم الفاعلين على الإنترنت على مبدأ (المحتوى الذي ينتجه المستخدم)، إذ يوفر الفيسبوك البنية التحتية في حين يوفر المستخدمون المحتوى، وبدون مشاركة المستخدم يفقد الموقع قيمته، وهو ما يفسر ترويج مؤسسة الفيسبوك لفكرة أنه من مصلحة الجميع استخدام خدماتها على نطاق واسع ومن قبل أكبر عدد من المستخدمين، فكلما زاد حجم الاتصالات والتبادلات، زاد حجم الفائدة من هذه الخدمة، من ثم يمكن للمستخدم الاستفادة مما يسميه الاقتصاديون "أثار الشبكة" القائمة على تعزيز قيمة وفائدة الخدمة (المزيد من الأصدقاء للمشاركة والتبادل، المزيد من فرص الالتقاء بالأفراد الذين يشاركوننا الأذواق والاهتمامات...)، و بهذا يتيح العدد المتزايد للمستخدمين واستخدام البيانات الشخصية لأغراض الاشهار الموجه تعزيز تهمين الاشهار عبر الموقع وإتاحة أرباح مستقبلية للمؤسسة.

تظهر الخصوصية هنا كالخاسر الأكبر في هذه العلاقة المربحة بين المستخدم والفيسبوك ولو بشكل جزئي، حيث تؤكد التطورات الاجتماعية والتكنولوجية اتجاه انحصار التزام الأفراد بالخصوصية، وتعمل الفيسبوك على تقبل فكرة أن حماية الخصوصية لا ينبغي أن يكون عائقا أمام حرية كشف الذات وتضخم إنتاج البيانات، فالمعادلة بسيطة نسبيا: "خصوصية أقل = المزيد من البيانات = المزيد من القيمة = المزيد من الأرباح"، كما يسعى الفيسبوك أيضا إلى انتهاج سياسة تتيح له استغلال البيانات الشخصية، وجعل العلاقات الاجتماعية تجارة مربحة وهي السياسة التي جلبت له انتقادات لاذعة في العديد من المرات.

تشير BOYD. Danah المتخصصة في الشبكات الاجتماعية الرقمية، إلى أنه حتى ولو كان في صالح الفيسبوك حث المستخدمين على تعميم أكبر قدر من المعلومات الخاصة بهم، إلا أن الطرق المنتهجة في ذلك تبقى غير شرعية، (BOYD. Danah, 2010) فباعتباره أحد أكبر قواعد البيانات الشخصية في العالم، يمكن لـ ZUCKERBERG أن يقر بسهولة فقدان الناس للرغبة في الحفاظ على الحياة الخاصة و هو موقف مؤسسته التي تحقق ذاتها على الشبكة بطريقة "موضوعية"، غير أن هذا الحديث عن الشفافية و توافق السلوكيات مع مصالح مؤسسة فيسبوك يتم على حساب أكثر المعرضين للخطر بمن فيهم المراهقين و الأطفال.

كل المواقف الموصوفة هنا تؤكد اهتمامها بمفهوم تحديات الخصوصية، الذي يمكن تحديده في التناقض بين عدم الثقة والقلق الحقيقي بشأن التهديدات الحقيقية التي تهدد الحياة الخاصة من ناحية، والرغبة القوية لعرض الذات طواعية عن طريق تقديم معلومات قد تؤثر على الخصوصية من ناحية أخرى، ففي حين يبدي غالبية المستخدمين قلقهم من تحديات الخصوصية على شبكة الإنترنت، أو يتحسرون أحيانا لعدم وجود حماية قانونية لها، قليلون هم النشطاء في مجال حماية الحياة الخاصة أو المطالبة بحماية البيانات الخاصة، وهو ما يشكل زاوية أخرى لتحديات الخصوصية متمثلة في هذه الفجوة بين التصريحات والممارسات.

يتناسى مستخدمو الفيسبوك التحديات والعواقب المرتبطة بتواجدهم عبر هذا الفضاء بسبب شعورهم بالرضا والاطمئنان على هذا التواجد، فالظاهر هو أن الفيسبوك يجسد الحريات المتنافسة اجتماعيا، حرية التظاهر مقابل أن يفعل الآخرون الشيء نفسه يميل إلى الغلبة على الحق في الاطلاع والحماية من المخاطر المحتملة، ويذهب ROCHELANDET Fabrice إلى أبعد من هذا بقوله " حتى عندما يكون المستخدم أكثر اطلاعا ودراية بالمخاطر الحقيقية فمن الصعب جدا أن يكون واثقا في قدرته على اتخاذ القرارات بما يتفق مع مصالحه فيما يتعلق بخصوصيته"، ويتساءل قائلا "هل ينبغي أن نحمي المستخدم ضد نفسه؟ دون حتى أن يشعر هو بحاجته إلى هذه الحماية؟" (ROCHELANDET. Fabrice, 2010).

إنه لمن الشائع لدى مستخدمي الفيسبوك سوء تقديرهم للمخاطر الناجمة عن هذا الاستخدام وبالأخص تلك المرتبطة بنشر البيانات الشخصية، النمذجة الذاتية وعرض الذات، ولا يتعلق حديثنا هنا حول المعلومات بصورة منفصلة، ولكن عن قدرة النظم الذكية في الفضاء الرقمي على جمع وتحليل جميع المعلومات الشخصية التي يتم تركها طوعا، وقدرة هذه النظم على بناء تمثيل دقيق إلى حد ما عن الفرد ورسم ملامح لـ "ذاته الرقمية"، وعليه يمكن أن ينبج عن هذه المجموعة المتناسكة من البيانات استغلال قد ينطوي على مخاطر كبيرة تهدد الأفراد.

قائمة المراجع:

- 1-CARDON. Dominique, Pourquoi sommes-nous si impudiques ? Actualité de la recherche en histoire Visuelle, 2008.
- 2-GERSTLE. Jaques, La communication et la dualité public/ privé, Revue française de sciences politiques, Vol 37, N° 5, 1987.
- 3-KOSKELA. Hille., Webcams, TV shows and mobile phones Empowering exhibitionism, Surveillance & Society, volume 2, N°3, 2004.
- 4-MEHL. Dominique, La télévision de l'intimité, Le Temps des médias, Ed, Seuil, Paris, 2008.
- 5-TISSERON. Serge, De l'intimité librement exposée à l'intimité menacée, Vie sociale et traitements, Ed, Ramsay, Paris, 2007.
- 6-ROCHELANDET. Fabrice, Économie des données personnelles et de la vie privée, Éd, La Découverte, coll. Repères, Paris, 2010.
- 7-ROUVROY. Antoinette, Réinventer l'art d'oublier et de se faire oublier dans la société de l'information ? Ed, Stéphanie LACOUR, Paris, L'Harmattan, Paris, 2008.
- 8-VITALIS. André, L'exposition de la vie privée dans les médias, Actes en ligne du Colloque Franco-Mexicain des Sciences de la communication, 2002.